إضاءة

بمختارات شاملة، زمانياً وجغرافياً، من شعر الحب الافريقي، يسدّ الشاعر المالاوي فرانك تشباسولا ما يبدو فراغاً في مدوّنة القارة الشعرية، ويكشف عن تراث من قصائد الحب المغناة والمكتوبة، يمتد من الحضارة المصرية القديمة إلى الأزمنة الحديثة

محمد الأسعد

القوس المرتعش غزلٌ على ضفاف أفريقيا

شعر الحبّ المفقود

هل عرفت قارة أفريقيا شعر الحبّ مثلما عرفته بقيّة القارات؟ أو بعبارة أكثر وضوحاً: هل عرف الإنسان الأفريقي عاطفة الحب وعبّر عنها في شعره وأغانيه؟ سيبدو السؤال غريباً بالنسبة إلى القارئ العربي، مثلما هو غريبٌ السؤال عمّا إذا عرفت الثقافة العربيّة الشعر مثلاً. ولكنّ الأستاذ الجامعي والشاعر والكاتب فرانك تشباسولا، المولود في مالاوي عامَ 1949، والمنفيّ والمبعد عن أرض وطنه في ما بعد، يلاحظ أن هذا السؤال يتبادر ولا بدّ إلى ذهن أي قارئ يتصفّح عدداً من كتب المختارات الشعرية العالمية المعنيّة بشعر القارة الأفريقية، إذ لا يجد فيها ذِكراً لقصيدة حبّ أفريقية واحدة، وإن وجد قصيدةً فستكون لشاعرة ذات صلة بأفريقيا وليست أفريقيّة حتّى. ويبدو أن ملحوظة هذا الأستاذ المختصّ بالدراسات الأفريقية في جامعة إيلينوي الجنوبية في الولايات المتّحدة الأميركية، هي التي تقف وراء إعداده لكتاب مختارات شعريّة تحت عنوان «القوس المرتعش: مختارات من قصائد الحب الأفريقية»، ليبرهن فقط على أن الإنسان الأفريقي، شأنه شأن أيّ إنسان آخر في العالم، عرف عاطفة الحب وعبّر عنها شعراً، بل وعلى أنّه يمتلك تراثاً من قصائد الحب المغنّاة والمكتوبة، يمتدّ من زمن الحضارة المصرية القديمة إلى الأزمنة الحديثة، بكامل حيويته وموضوعاته.

المغنية البينينية انجليك كيدجو في عرض «امرأة سواء». مهرجان أفينيون. 2017 (Getty)

ضمّت هذه المختارات قصائد مكتوبة بعضُها باللغات الإنكليزية والفرنسية والبرتغالية، وبعضها مترجم عن اللغات الأفريقية المتنوعة، وتصدّرت قسمها الأول قصائد من مصر القديمة مَمّا وُجد مكتوباً ومنقوشاً بالحروف الهيروغليفية على أوراق البرديّ وجدران المبانّي. وتأتي بعدها، في القسم الثاني، قصائد الحبّ التراثية من مختلف بلدان القارّة وسواحلها وصولاً إلى جزر تابعة لها، مثل مدغشقر. أما القسم الثالث فيحتوي على قصائد حداثيّة ومعاصرة، ومن شتى بلدان القارة أيضاً.

هذا المتن الشامل، زمنياً وجغرافياً، يبدأ بالكشف عن واقعة أن المصريّين القدماء هم الذين أبدعوا أقدم قصائد الحب التي تعتبر واحدة من منجزاتهم الرئيسية في الأدب. وترجّح سطورٌ منقولة عن عالم الآثار المصرية البريطاني توماس إيرك بيت، أنه لا يوجد شاعرٌ أفريقي في الأزمنة الحديثة يكتب عن الحبّ ولا يقول الكثير من الأشياء التي فكّر بها وقالها أسلافُه المصريون قبل ثلاثة آلاف عام. وحين يأخذ به صاحبُ المختارات منهجاً في البحث والإعداد والرؤية، إنما يأخذه بهدف تعريف القارئ بمتن متنوّع ومختلف من متون شعر الحبّ، وهو بُعدٌ مهمّ مفقود بالرغم من أهميته في الأدب الأفريقي كما يقول.

في مصر القديمة، يزدهر شعر الحب الأقدم في شكله الغنائي المكتوب بالحروف الهيروغليفية. ويمتد هذا التراث زمنياً من عهد حكم الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين (من 1300 ق.م إلى 1100 ق.م تقريباً)، ويستحضر جوانب من تقاليد المجتمع المصري القديم، كما يوثّق فنون الغزل على شاطئ النيل، وفي الأعياد والمهرجانات ومناسبات الأفراح التي هي من سمات البلدان المتحضّرة.

هذا الشعر يرسم صورة مجتمع يمنح الرفاهية قيمةً عليا، ويمجّد الفرح، على الرغم من الربط الشائع بينه وبين الانهماك المزمن بالموت وما بعد الحياة، ربما بسبب المومياءات التي اشتهر بها. يضاف إلى هذا، أنّ جوهر المخيّلة في أغاني الحبّ هذه هو ذاته في أغاني وأناشيد حضارات أخرى. على سبيل المثال، تشي مجازاتٌ وأخيلة ورموز مركزيّة في النصوص الكنعانية والأكدية (البابلية والأشورية) واليونانية بأصولها التي اشتُقّت منها، أي أغاني الحبّ والإعراس الأفريقية.

من ناحية بنيوية، يكشف هذا الشعر عن مهارة في التأليف تنافس مهارة ما يناظره في الشعر الحداثي والمعاصر، مثل تفضيله لمعجم بسيط، وسطور بلا قوافٍ، وتنويعه لأطول السطور، واستخدامه للغة الحديث المتداولة، وإيقاع الكلام المنطوق، وكل هذا يعكس خصائص الشعر الحداثي الأساسية. وتكشف نغمة الخطاب في هذه القصائد أيضاً عما يتّصف به الخطاب الشخصي من حميمية بين المحبّين، وهي نغمة ما زالت تحافظ على حيويتها حتى اليوم.

يلاحظ صاحب المختارات أنّ ما عبّر عنه العشّاق القدماء بجرأة وحذق تصلنا اليوم أصداؤه في أغاني الطرب السواحلية (سواحل شرقي أفريقيا)، بمجازاتها وتورياتها. وبالفعل، علينا أن نعود إلى الماضي لنصادف طلائع عشاق الشعر الرومانسي اللاحق.

بعد ذلك تقودنا المختارات من أغاني الحبّ القديمة إلى القسم الثاني في نقلة طبيعية لا يشعر معها القارئ أنه انتقل إلى عالم آخر. في هذا القسم، نجد أنفسنا أمام نماذج من أغاني الرقص والغزل والأعراس المعاصرة؛ نماذج ثرية على الرغم من أنها لا تستنفد كلّ ما هو موجود، كما نجد أغاني حبّ، من أعراق القارة المتنوّعة، تكشف عن نبض وإيقاع أفريقيا التقليدية.

وتستحقّ أغاني حب قبيلة أكولي، في شمالي أوغندا، إشارةً خاصّة بسبب تأثيرها العظيم على الشاعر الأوغندي أوكت بي بايتك (1931 - 1982)، جامع هذه الأغاني ونشرها، والذي يعدّ واحداً من أبرز شعراء أفريقيا في القرن العشرين. ساعد هذا الشاعر بعملية الأرشيفي النموذجي، وترجمته للقصائد الغنائية الموروثة إلى الإنكليزية، على تدشين حركة شعرية جديدة في شرقي أفريقيا في ستينيّات القرن الماضي، وأورث الأدب الأفريقي كنزاً مهمّاً يتآلف من أغاني حبّ بلهجة قبيلة أكولي، مترجمة بأمانة حافظت على نكهتها المميّزة حتّى في الإنكليزية.

وعلى نحو مماثل، تدين حركة شعرية معاصرة في مدغشقر، أكبر جزر أفريقيا، بتكوينها، لشكل قديم من أشكال شعر غزل شفهيّ ازدهر طيلة عصور، يُدعى هيْ تيني، وهو شعر حبّ حواريّ كلاسيكي بثّ الحيوية في قصائد حبّ شعراء بارزين من حركة النزعة الزنجية، من أمثال جان جوزيف رابيرايفيلو وفليبي هانيفو، اللذين مارسا كتابة هذه الأشكال الشعرية الشفهية بوعي كأساس للشعر المعاصر.

(شاعر وروائي وناقد فلسطيني)

حركات شعرية معاصرة تدين لتراث غزلٍ شفهيّ قديم

تشي النصوص الكنعانية والأكدية واليونانية بأصول أفريقية

أداة فنية لتوليد الحياة

بمختارات «القوس المرتعش»، يتحدّى المؤلّف شعراء أفريقيا أن يحتضنوا هذه الآلة الموسيقية ليعزفوا عليها أغاني حبّ ترافق تبادل الهدايا بين الناس من أجل علاج الفجوات بينهم، وتوفّر لهم إمكانية تحقيق الكلّيّة الوجودية. ومن المعروف تاريخيا أن شعراء القارة الشفهيين غنّوا لمجتمعاتهم التي تمزّقها النزاعات، مستخدمين القوس بسبب تعدد استخداماته، كسلاح صيد، وأداة فنية لتوليد الحياة، والتأكيد على الروابط الإنسانية.

متابعة

عبد الله البريمي من بيرس إلى لو تمان

في مسالك الكون السيميائي

في حديثه ضمن برنامج «النقّاد وما يقاربون»، الذي ينظّمه «الملتقى القطري للمؤلّفين»، قدّم الباحث المغربي إضاءة شاملة حول تطوّرات حقل السيميائيات

شوقي بن حسن

منذ إطلاقه كمشروع أوّلي، بداية القرن العشرين، من قبل عالم اللسانيات السويسري فرديناند دي سوسيير، غرف حقل السيميولوجيا - كعلم يجعل موضوعه العلامات - توسّعات عدّة، فالحقل المعرفي الذي كان هدفه «دراسة العلامة ضمن الحياة الاجتماعية»، والعبارة لـ دي سوسيير، أصبح يُخضع لدرسه كلّ شيء حوله. هكذا باتت النصوص الأدبية، فالأعمال البصرية، فظواهر الحياة اليومية موادّ يشتغل عليها السيميولوجيّون، وصولاً إلى اعتبار الثقافة في مجملها نسيجاً من العلامات، وبالتالي فهي أيضاً مادّة ينبغي أن يتصدّى لها البحث السيميولوجيّ، وهو ما أرساه ضمن جهاز مفاهيمي مضبوط المفكّر الروسي يوري لوتمان.

انعكس هذا التوسّع للمعرفة السيميولوجية على مجالات البحث العربية، فجرى الخروج تدريجياً من دوائر الأدب، إلى الفضاءات الجديدة التي يحتكّ بها علم العلامات. ويمكن أن نُذكّر في هذا السياق أعمال الباحث المغربي عبد الله البريمي (1970).

يوم الإثنين الماضي، كان البريمي ضيف برنامج «النقاد وما يقاربون»، الذي ينظّمه «الملتقى القطري للمؤلّفين»، في حديث بعنوان «من السيميائيات العامة إلى السيميائيات الثقافية»، وقد ناقشه من الدوحة الباحث الجزائري عبد الحق بلعابد.

بدأ البريمي كلمته باستذكار مجمل هذه المشاغل «في جنينيّتها»، بحسب عبارته، حيث يعود إلى تسعينيات القرن الماضي مشيراً إلى معاناته كطالب في تلمّس مفاهيم السيميولوجيا بمرجعياتها في اللغتين الفرنسية والإنكليزية، دون أن ينفي ذلك انطواء هذا الجهد على «متعة لا تنفصل عن العناء والمكابدة» كما يقول. ويضيف: «قُرِّرتْ من البداية أن أشتغل على السيميائيات في أصولها»، وقد دفعه ذلك للاحتكاك بتطريات المفكّر الأميركي تشارلز ساندرس بيرس.

عن اختياره لبيرس بمرجعياته الفلسفية والمنطقية من البداية، على عكس المناخ البحثي الذي كانت تُروج فيه، حينها، السيميائيات السردية، يوضّح البريمي أنه حاول الخروج من الدراسات الأدبية التي ينهمك فيها معظم الباحثين، وقد كان من بداياته ميالاً إلى اللسانيات.

وحول علاقته اللاحقة كباحث في فكر بيرس، يشير إلى فضل من نقله إلى الفرنسية، جيرار دولودال، وخصوصاً إلى فضل السيميولوجي الإيطالي أمبرتو إيكو (1932 - 2016)، فقد جعلاً من المفكر الأميركي علَماً فكرياً بعد أن كان شبه مجهول بسبب عدم الاعتراف الأكاديمي به في بلاده.

ويرى الباحث المغربي، في ما يخصّ أهمية فهم بيرس، أن طروحات المفكر الأميركي تجعل من التأويل محور الحياة. يقول البريمي: «الإنسان يحيا بالتأويل، وكما كتب ذات يوم جورج لايكوف (الاستعارات التي نحيا بها)، يمكن أن نكتب بيرس الذي نحيا به، فمعه نفهم أن التأويل هو جوهر حضور الإنسان في العالم». ويشير إلى أنه «بالعودة إلى العربية، نجد أن كلمة التأويل تعود إلى فعل مصدريّ هو آل، وهي تعني في القواميس القديمة الرجوع بالشيء إلى أصله، فنحن حين نؤوّل نعود بالشيء إلى أصل».

المرجعية الثانية التي تحدّث عنها البريمي تتمثّل بالمفكّر الروسي يوري لوتمان. يشير الباحث المغربي إلى أن الذهاب إلى هذا المفكّر كان فرصة للتعرّف على طروحاتٍ غير تلك التي تأتينا من أوروبا وأميركا، بما في ذلك من إثراء لثقافتنا. لكنه في المقابل ينبّه إلى أن الكثير من الأبحاث العربية في مجالات معرفية كثيرة قد اعتمدت على نظريات لوتمان دون الإشارة إليه كمرجع صريح.

هنا، يعرّج البريمي على مجموعة من المفاهيم التي طرحها لوتمان، وأبرزها «الكون السيميائي»، ومنه يقارب الثقافة باعتبارها نسقاً من العلامات، وبأنها لا تكون ثقافة إلّا إذا أوجدت لنفسها نموذجاً يميّزها عن الثقافات الأخرى، وما هذا النموذج إلا مجموعة من العلامات الدالة عليها.

يرى السيميائية الثقافية باعتبارها «تجسيراً للمعارف»

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

عبد الله البريمي في بورتريه لـ عبد الله السالمي

حصاد 2020

الثقافة السورية عامٌ آخر بنكهة الحزن والتعلّق بالأمل

نباتٌ يُبرعم بعيداً عن تربته

يصعب الحديث عن «ثقافة» داخل سورية، فهي منفيّة بهيمنة النظام. أما في «اللجوء»، فقد بدا النشاط الفكري والفني فردياً في الدرجة الأولى

باريس ـ العربي الجديد

يشكّل الحديث عمّا شهدته الثقافة السورية عامَ 2020 مفارقةً محزنة، باعتبار أنّ ما يعيشه البلد من تدمير وتجويع أرساهما النظام السوري يتنافى مع أي فهم، فكريّ أو اجتماعي أو حضاريّ، لمفردة الثقافة. وكما هي الحال في الأعوام الأخيرة، أو ربما أكثر، كانت السنة المنصرمة سنةً طاحنة للسوريين ولبلدهم، في حين لم يتوانَ فيها النظام عن إطلاق مناسبات ثقافية خاوية، وعقْد حفلات انتهاء ترميم لهذه القلعة أو ذاك المعلَم، سعياً لتصدير صورة الباني والمصلح إلى النصف الباقي من السوريين في البلد، وإلى مَن يتابعونَ بعْدُ ما يجري فيه.

ولعلّ أكثر المفارقات تدليلاً على هذا الانفصام، قيامُ سلطة الأسد، نهاية العام، بتنظيم «فعاليات فنية وثقافية» وافتتاح «مكتبة» في سجن عدرا في دمشق، الذي يُعذَّب في أقبيته مئات من السوريين. كلّ هذا يجعل من الحديث عن «الثقافة» داخل سورية أمراً صعباً، فهي منفيّة بحضور النظام وسيطرته على البلد وساكنيه.

خارج سورية، بقي النشاط الثقافي فردياً في الدرجة الأولى، في ظل غياب بنى ومؤسسات مستقرة تحمل على عاتقها تنظيم مشاريع جماعية واحتضانها. وبدا الأمر، لسنة أخرى، أشبه بنباتات متفرّقة تبرعم هنا وهناك، في أصص صغيرة (حتى الآن)، بعيداً عن تربتها.

وجاءت جائحة فيروس كورونا، والحظر الذي رافقها في أغلب أصقاع المعمورة، ليعيق الوتيرة، التي كانت متصاعدة نسبياً، للمحاولات الثقافية السورية في «المهجر»، لا سيما في فرنسا وألمانيا وتركيا.

أما الفعاليات التي أصرّت على أن تُعقد، فقد اضطرّ منظموها إلى إجرائها إمّا في حلقات ضيّقة، أو عبر الفيديو ووسائل التواصل، كما هي حال مهرجان Syrien n.est fait، الذي بات أحد المواعيد الفنية السنوية للسوريين في العاصمة الفرنسية. لكنّ الحظر وتحوّل الإنترنت إلى منصّة أساسيّة للحدث الثقافي شكّل، في الوقت نفسه، فرصةً سانحة لبعض المؤسسات لتزيد من نشاطها، كما فعل «مركز حرمون للدراسات المعاصرة»، الذي لم تنقطع لقاءاته الكثيفة حول سورية ومشاغلها المعيشية والسياسية والفكرية عن متابعيه على وسائل التواصل.

وقد استطاعت فعالياتٌ أخرى تجاوز عقبات الجائحة، كما هي حال معرض الفنانة هبة العقّاد في غاليري «أوروبيا» في باريس، ومسرحية «واي صيدنايا»، التي عُرضت في «مهرجان نابولي الدولي للمسرح»، جنوب إيطاليا.

وعلى صعيد النشر، بدت السنة فقيرة، نسبياً، بالأعمال اللافتة أو المهمّة قياساً بسنوات سابقة من العقد الأخير.

وكما بدا العام حزيناً برحيل الشاعر والناقد السينمائي بندر عبد الحميد (1950 – 2020)، وفي أيلول/ سبتمبر غاب الصحافي والناشر رياض نجيب الريس (1937 – 2020)، فإنه انتهى كذلك مع رحيل المخرج حاتم علي (1962 – 2020)، الذي شكّلت وفاته حدثاً مفجعاً تجاوز سورية وثقافتها إلى فضاء عربي أوسع.

عام بدا حزيناً بوفاة بندر عبد الحميد وانتهى كذلك برحيل حاتم علي

لوحة لـ هبة العقّاد (غاليري أوروبيا)

فعاليات

ينظّم «المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون/ بيت الحكمة»، في قرطاج بالقرب من تونس العاصمة محاضرة، عند العاشرة والنصف من صباح اليوم، بعنوان **الشرح الصاحي على خمرية ابن الفارض**، يلقيها أستاذ الفلسفة الإسلامية والباحث التونسي **مقداد عرفة منسية**، ويتناول فيها قصيدة المتصوّف العربي الشهير.

تقام عند الرابعة من عصر اليوم محاضرة افتراضية بعنوان **نشوء الدولة والتحالفات الاجتماعية في الخليج العربي: مقارنة حالة الكويت والسعودية**، يلقيها **لؤي العلي**، تعقبها محاضرة **الاقتصاد النقدي بوصفه بناء الدولة - تنظيم داعش يتحدى الأنظمة المالية الدولية** لـ **عائشة لقمان اوغلو**، ضمن فعاليات المدرسة الشتوية التي ينظمها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات».

حتى السابع والعشرين من الشهر الجاري، يتواصل معرض **ثلاثة في مرايا اللون** الذي افتتح السبت الماضي في «غاليري ضي» بالقاهرة. يضمّ المعرض حوالي مائة عملٍ للفنّان **رافت احمد** (الصورة)، برسوماته المستمدّة من الطبيعة المصريّة، و**مها عبد الكريم** بأعمالها الخزفية، و**اسماء خوري** بيوتريهاتها.

يقيم «مترو المدينة» في بيروت حفلة افتراضية عند السابعة من مساء الثلاثاء المقبل بعنوان **الطربوش**، تقدّم خلالها أغنيات للملحن اللبناني **نصري شمس الدين** (1927 ـ 1983/ الصورة)، بأداء **زياد الأحمدية** (عود)، **سماح ابو المنى** (أكورديون)، **احمد خطيب** (غناء)، **ضياء حمزة** (هارمونيكا)، **جورج الشيخ** (ناي).